غائية الإنسان بين الحتمية الكونية والآلية البيولوجية
من منظور الثقافة الغربية

نعيمة ادريس، المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة، الجزائر

ملخص
مع التطور العلمي الحديث تغيرت النظرة للإنسان، وأصبح دون قيمة بعد أن وضع في خندق الحتمية والآلية والتطور الداروينى مما جعل مشاعر الإحباط واللامعنى تتفاقم لديه لتسلبه كل معاني الأمل والاستقرار ليجد نفسه يتحدث عن الصراع من أجل البقاء وكيف يفوز في معركة الصراع هذه، والتي حتى وإن كسبها فإنه لن يعثر على السعادة المنشودة. إن مضمون الداروينية بالنسبة للأخلاق والسياسة قد يبدو مناقضا أكثر منه مؤيدا للتقليد الموروث عن التنوير المفعم بالأمل. إن الإنسان الغربي خان التطور بنفسه، عندما قدم قيما هوت بالإنسان بدلا من أن تقدمه: قيم الحرب، الكراهية، الظلم. واقع الحال أن العلم الحديث خدم الإنسان فعلا وفتح أمامه الآفاق، لكن في الوقت نفسه جرده من إنسانيته بعد أن تنازل وتخلى عن كل القيم وعلى رأسها الإيمان بالله.

Résumé:
Avec le développement scientifique le statut de l'homme est dévalorisé parce qu'il a été exposé au déterminisme, au machinalisme, et à l'évolution darwinienne. Cette transformation lui a crée les sentiments de désespoir, de mépris, et par conséquent il a vécu un conflit existentiel quand a la réussite dans cette vie. Le contenu de la théorie darwinienne concernant la morale et la politique parait beaucoup plus contradictoire que solidaire avec la tradition hérité de la philosophie des lumières enrichie par l'espoir. L'homme occidental a trahi l'esprit du développent quand il a adopté des valeurs dégradantes telles : le souci de la guerre, le mépris, le sadisme. Selon l'état actuel nous pouvons dire que la science moderne est en faveur de l'être humain car il a bénéficié de ces avantages, mais cela n'empêche pas que ces mêmes avantages ont débarrassé l'homme de son humanité et de ses valeurs nobles, surtout sa croyance en Dieu.

***

مقدمة

عندما أطل العلم الحديث من أوربا تفاءل الإنسان واستبشر بمقدم عصر الرفاهية والتقدم، عصر السعادة التي سيعيشها الإنسان، بعد أن تخلص من كل الأغلال التي تقيده، خاصة وصاية الكنسية وما مارسته من ظلم واستبداد، لقد عادت الثقة للإنسان بما أنه صار هو السيد، سيد الطبيعة بعد أن عرف القوانين التي تحكمها، وبعد أن حول هذه القوانين إلى وسائل تقنية سهلت عليه الحياة بتخفيفها لأعباء كثيرة كان يقوم بها بجهده العضلي...عوامل تفاؤل كثيرة لا أحد ينكرها، لكن بالموازاة هذا التقدم العلمي كان يواكبه تقدم وتحول على مستوى الأفكار والنظريات والتصورات، التي كانت تحاول هي الأخرى أن تبدو بشكل مختلف عن صورة الماضي، ماضي العصور الوسطى، وهكذا تبدلت النظرة إلى العالم، وإلى الإنسان، بعد أن تبدلت النظرة عن الله أولا. لكن كيف هي الصورة التي سادت عن العالم والإنسان وعلاقتهما بالخالق قبل الدخول في مرحلة فكرية تاريخية عادة ما توسم بالعصر الحديث؟

صورة العالم والإنسان في العصور الوسطى

علم العصور الوسطى ورغم أخطائه الكبرى بسبب الاحتكام إلى معلومات خاطئة في الكتاب المقدس، إلا أنه كان يحمل نظرة إلى العالم. مبدئيا نقول إنها الصورة التي قدمها الكتاب المقدس، أي صورة تسيطر عليها الرؤية الدينية، إلى جانب التفسير العلمي الذي غالبا سيؤيد هذه النظرة الدينية، بدلا من الدخول في مواجهة مع الكنيسة.

الصورة التي سادت، تمجد الأرض باعتبارها الكوكب الذي اختاره الله مسكنا للإنسان، فالأرض ثابتة وهي مركز الكون، كل النجوم والكواكب بما فيها الشمس تدور حول الأرض، وحول الإنسان. كذلك عمر الأرض حدد بما يتناسب وأعمار أبناء آدم، كما وردت في سفر التكوين، ومنه نهاية العالم ستكون سنة 4004م، بما أن بدايته كانت سنة 4004 ق م، والمسيح بداهة يتوسط تاريخ بداية ونهاية العالم. الملاحظ هنا دين أو وحي يعضده العلم، معا يفسران ظواهر الكون، لكن يبقى الطابع الديني هو المسيطر، فتاريخ الخلق منذ بدايته وحتى يوم الدينونة، متعلق بالله، وبالعقائد المسيحية من صلب وتجسد.

وعموما بتضافر التفسير الديني واللاهوتي والعلمي، تشكلت في النهاية الصورة النموذج للعالم ومن ثم للإنسان، ويمكن تحديد ركائز هذه الصورة النموذج في ثلاث نقاط: الله، العالم وغائيته، والنظام الأخلاقي للعالم.

أولا-الله

خلق الله العالم في لحظة ما في الماضي، كانت بالنسبة لإيمان العصور الوسطى منذ بضعة آلاف من السنين مضت، أما بالنسبة للعلم الحديث، فإن لحظة البداية لا بد أن تكون منذ بلايين السنين كذلك الله خلق العالم من عدم كما ورد في سفر التكوين،الإصحاح الأول،لكن العلم الحديث لن يتمسك بقصة الخلق هذه...

ثانيا-العالم والغاية منه

لقد خلق الله العالم **لكن** لماذا خلقه ؟ سؤال يثير فكرة الغرض أو الغائية، والإجابة عنه صعبة حقا، بل وتدخل في السر الإلهي بالنسبة للمؤمن، لكن العصر الوسيط قدم إجابات تجمع على القول بالغرض، فالعالم لم يخلق عبثا وإنما له غرض، بل كل شئ في الوجود من أبسطه إلى أعقده خلق لغرض، حتى وإن كان يبدو غير مفيد، بل ومضر أيضا، ويصدق هذا على الإنسان فهو لم يخلق عبثا.

ثالثا-أخلاقية العالم

بعد أن كان السؤال لماذا خلق الله العالم، أخذ صيغة أخرى: هل يمثل هذا العالم نظاما أخلاقيا؟ وفي الحقيقة طرح السؤال بهذا الشكل، يعد مصادرة على المطلوب، فبما أنه عالم غائي، لم يخلق صدفة أو عبثا، فهو بالضرورة يحمل دلالة أخلاقية.

هذه هي الصورة التي سادت عن العالم في العصور الوسطى انعكست كذلك على الإنسان كما قدمته التفاسير اللاهوتية، فهو خلق على صورة الله، الذي أرسل إبنه الوحيد من أجل خلاص هذا الإنسان، الذي يجب أن يعمل ويعيش وفق ما يأمر به الناموس، حتى يفوز بنعيم الجنة. ورغم غموض هذه الصورة عند الكثيرين في عصرنا،فإنها في النهاية جزء من

النظرة الدينية للعالم، التي تعني فيما تعنيه،أننا نعيش في عالم يعير الخير والشر اهتماما،أي يعطي للأشياء والحوادث قيمة بالمعنى الأخلاقي للقيمة، وعموما غرضية العالم تستلزم أخلاقيته.[1]

صورة العالم في عصر النهضة

سنلاحظ تغيرا وتبدلا في النظرة، برغم النمو البطئ للعلم، إلا أنه كان ينمو، لا يعرف توقفا، خاصة في الرياضيات والفلك وعلم الحركة...هذا الإحياء العلمي أدى إلى تغيير الكثير من المسلمات، بل كان سببا في الكثير من المصادمات بين الدين والعلم، والتي بلغت أوجها عنيفة بسبب السلطة الدينية المتعسفة، وفي هذا المقام نركز على الإكتشاف الخطير، والذي يعد منعطفا في تاريخ أوربا العلمي والديني معا.

كوبرنيك ومركزية الشمس

يعنون راسل الفصل الثاني من كتابه "العلم والدين" بـ (الثورة الكوبرنيكية)، وفعلا عد اكتشاف كوبرنيك أو إعادة اكتشافه على الأصح حدثا ثوريا أو انقلابا كما فضل البعض.

إن نظرية مركزية الشمس ودوران الأرض حولها، اكتشفت من قبل اليونان ثلاثة قرون قبل الميلاد، اريسطارك Aristark ،كان متيقنا من اكتشافه لدرجة تدريسه، لكن بطليموس الإسكندراني رمى بنظرية مركزية الشمس، وأرجع للأرض مكانتها المفضلة وسط الكون، ومنذ هذا التاريخ وحتى العصر الوسيط بقيت رؤيته لا تناقش.[2] هذه الرؤية البطليموسية، تتناسب تماما مع ما ورد في العهد القديم:"الرب قد ملك .لبس الجلال. لبس الرب القدرة،ائتزر بها، أيضا تثبتت المسكونة لا تتزعزع."[3] لكن كوبرنيك (1473-1543) لم يكن مقتنعا بآراء بطليموس، وفي كتابه الثورة الفضائية، أثبت رياضيا أن الأرض جرم سماوي، وليست سطحا ثابتا كما ورد في التوراة، وأنها تدور حول الشمس، وحول ذاتها، وهذا تصور جديد للعالم.

كيف كان رد الفعل الكنسي؟ والأهم، ما الذي ترتب عن هذا التصور الجديد للعالم والذي اتخذ من الشمس مركزا للكون بدلا من الأرض؟

هل يؤثر التصور الجديد على التصور القديم بغائيته الكونية والإنسانية؟ يبدو الأمر غريبا عندما نعلم أن كل المبادئ والقيم سوف تتزعزع وتنقلب رأسا على عقب، بما فيها مكانة الله والإنسان، رغم أن سير الحوادث هو هو،سواء دارت الشمس أو الأرض، ثم إننا لا نشعر بالحركة أصلا. إن المفاهيم العلمية الجديدة واللاحقة التي ستدعمها، ستؤثر بعمق كبير لدرجة حدوث الأرض تدور،الأمر الذي يناقض جملة من العقائد التي ظلت مسيطرة أكثر من ألف سنة والتي أدمجت في الدين المسيحي تعسفا، لذلك استقبلت نظرية كوبرنيك بعداء شديد من قبل رجال الدين.

يتطلب تصور كوبرنيك للعالم إعادة نظر عسيرة بالنسبة لتلك التي تعود عليها المؤمن المسيحي رغم أن صدمة النظام الكوبرنيكي للمعتقد اللاهوتي لا تشير إلى أي تنافر أساسي بينه وبين الأجزاء الفلسفية في الشكل التقليدي للكون، بل إن تعارضهما الظاهر يرجع إلى بعض القضايا التي أقحمتها المسيحية في معتقداتها، إلى حد لا تضاهيه أي ديانة أخرى. فبديهي أنه من الصعوبة إدراج قصة الصعود في مخطط لعالم كوبرنيكي الشكل، فكان سهلا على رجال الكنيسة خصوم كوبرنيك أن يشيروا إلى عدة مواضع في الكتاب المقدس كانت تدل دلالة واضحة على أن مؤلفيه الذين نسب إليهم الإلهام والعصمة، كانوا يفترضون دوران

الشمس حول الأرض[3] وطبعا في هذه الفترة مازال زمام الأمور بيد السلطة الدينية، فكان سهلا أن تصدر الإدانة في حق كوبرنيك وأن يخطأ اكتشافه، رغم عدم تنكره للدين.

لكن رغم صد الكنيسة، إلا أنه في أواخر القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر، وبظهور مكتشفات تؤيد نظرية كوبرنيك، كانت الكنيسة ومعها المسيحية يشهدان لحظات الاحتضار، ثم إن الصراع بين العلم والدين لم يبق نظريا، لقد حسمت الآلة والتجربة الإشكال لصالح العلم، مما ساهم في تغيير النظرة إلى العالم، وما تبعها من تغيير في النظرة إلى الله وصفاته، وغرضية العالم وأخلاقيته، ومكانة الإنسان.

"لقد كان عصر النهضة جديدا في تطلعه إلى الحياة الدنيا، بدلا من احتقارها، والاتجاه إلى الحياة الأخرى، وقد جرت فيه محاولات لوضع المعرفة في المكانة الصحيح، من أجل حياة أكثر بهجة وتقدما، والنهوض بقوى الإنسان الفردية بدلا من الزهد، والتأكيد على الجانب العملي والإنجاز بدلا من الكسل القديم الاستسلامي الإتكالي."[5]

هذا في الشق الإيجابي، لكن العلم الجديد من جهة أخرى بدأ يفرغ صورة العالم من كل جوانبها الروحانية الضرورية، ومن كل قيمها الأخلاقية التي تعطي للإنسان قيمة وهدفا في الحياة.

صورة العالم والإنسان في العلم الحديث

أحوال العلم تسير على أحسن ما يرام، فهو يحقق تقدما ويسجل انتصارات تدعم بعضها بعضا، فهذا كبلر وجاليلي وبرونو...جميعهم يأتي بأفكار جديدة تدعم كوبرنيك ويظهر نجم آخر اسمه نيوتن، يحدث هو الآخر انقلابا.

بالرغم أن نيوتن كان مؤمنا بالكتاب والوحي، إلا أن أبحاثه اصطدمت مع الدين، خاصة قانون الجاذبية، الذي يقر الحتمية الميكانكية في الكون. لماذا هذا الصدام وأين يكمن التعارض بين إيمان هذا العالم من جهة، والعلم الذي قدمه من جهة أخرى ؟ ورفض السلطات المسيحية له من جهة ثالثة ؟

يرى نيوتن أنه بإمكاننا تفسير حركات الكواكب حول الشمس عن طريق قانون الجاذبية، هذا الأخير الذي يمكن من تفسير ظواهر أخرى مثل اضطرابات الكواكب في حركتها المدارية، بسبب قوة غير تلك التي تسبب دورانها المنتظم، وكذلك ظاهرة المد والجزر...وفعلا قام نيوتن بصياغة هذا القانون، والذي يقدم تفسيرا شاملا للظواهر، تفسير يقوم على آلية شاملة لا تسمح بتدخل الإله، إلا في حدود ضيقة جدا لتصحيح بعض الانحرافات في المدارات، مما يمنع وقوع الكارثة.

هذا ما أقره نيوتن: "إن الله يتدخل بين الحين والحين، ويعيد الكواكب الضالة إلى مسارها الطبيعي. ومن الجدير بالملاحظة، أن تلك كانت آخر فرصة تاريخية كان فيها عالم عظيم على استعداد لقبول وتدخل قوى فوق الطبيعة كسبب للظاهرة التي شاهدها"[6] لماذا يتهم نيوتن بأنه مؤسس المذهب المادي الآلي، رغم إيمانه بالله والاستعانة به لتفسير ظواهر طبيعية ؟

يقدم نيوتن تصوره عن الله في كتابه المبادئ، فهو سبب أول، لكنه ليس سببا ميكانيكيا، سبب ماهر عبقري بما أنه جعل الكون يسير كالساعة، كذلك يستنتج صفات الإله

بعيدا عن كل ما موجود في الوحي وفي العقائد، ليصبح التفكير في الله والطريق إليه هو كمال العلم وليس الوحي، ويحدد ثلاث نقاط دونها لا يكون الله شيئا، غير كونه قدرا وطبيعة وهي: السيادة، العلل الغائية، العناية الإلهية.[7]

وبتحليل نيوتن لفكرة السيادة، يوضح قصور المعارف التقليدية عن الله، لكنه لا يعالج قضية العناية الإلهية أو دورها في آلية الكون، أو الحتمية الميكانكية.

إذن لا شك في إيمان نيوتن بالسبب الأول (الله)، لكن هذا السبب لا حاجة لنا به في تفسير الظواهر،و يؤكد ذلك بقوله: "يكفينا أن نعرف فقط، أن الجاذبية موجودة وأنها تعمل فعلا وفقا لقوانين،وأنها تفسركل حركات لأجسام"[8].هذا بإيجاز موقف نيوتن من الله رغم الإشكالات التي يثيرها، إلا أن المتفق عليه أنه عالم مؤمن، لكن مع ذلك اتهم بالإلحاد، أو المسبب في انتشار الإلحاد، كيف ذلك ؟

"كان نيوتن مسيحيا خاشعا للغاية، يأخذ اللاهوت مأخذ الجد، أكثر من العلم ولا بد أنه كان سيصاب بالهلع، لو أنه تصور أن ما قام به سيقوض أركان الإيمان الديني، فقد كان رأيه الخاص أن ما قام به ستكون له نتيجة مضادة تماما، بل إنه افترض أن نظامه عن الميكانيكا السماوية سوف يزودنا بالبرهان على وجود الله"[9] وهو محق في ذلك لأن النظام الشمسي في النهاية، يكشف أن كل شيء مصنوع وموضوع بدقة متناهية، مما يلزم وجود الصانع، ويلزم القول بغرضية العالم أيضا.

إذن، أين يكمن المشكل؟ يمكن القول أنه "بسبب نيوتن تلقى القرن الثامن عشر ورعا وتقوى بأسلوب خاص، أين يظهر الله كمشرع، خلق الكون، أولا ثم ثبت القوانين التي تحدد الأحداث المستقبلية، دون ضرورة تدخله الشخصي."[10]

وهنا يقع التصادم مع الدين: كيف هو هذا الإله الذي خلق العالم، وتركه يسير وحده، دون تدخل منه ودون عنايته، ماذا يفعل الآن، هل انتهى دوره؟... وأسئلة أخرى حساسة ومهمة، لهذا نجد الموقف الديني المسيحي والذي بدأت سلطاته تتقلص، فضل كما يقول راسل "بعض الاستثناءات، مثلا توجد المعجزات المتعلقة بالدين، لكن بالنسبة للألوهيين، لا يوجد استثناء لجميع الأحداث، كلها تسير وفق قوانين طبيعية، لأنه لما زالت الضغوط الدينية حتى الإستثناءات غابت."[11]

وكانت الورقة الأخيرة في حذف الاستثناءات التي أبقى عليها نيوتن فرضية لابلاس (1719-1827). و هي الفرضية الشهيرة التي من خلالها رمى لابلاس كليا بتاريخ الخلق، كما فسر الانحرافات التي تحدث عنها نيوتن، ورأى أن الله لا يتدخل أبدا لتعديلها لأنها تصحح نفسها بنفسها عبر حقب زمنية طويلة تلغي أي تراكم، الأمر الذي يعني لا داعي لتدخل الله في تصحيحها، وفعلا عندما لاحظ نابليون بأن كتاب لابلاس الكبير حول ميكانيكا السماء لا يشير أبدا إلى الله، أجابه لابلاس بقوله: "سيدي تجاوزت هذه الفرضية".[12]

وهكذا بعد تأسيس النظام الشمسي وقانون الجاذبية، بدأت صورة الله في المجتمع الأوربي تغيب حتى تكاد تتلاشى كلية، وإن كانت المسؤولية لا تقع على نيوتن وإنما على أتباعه وأنصاره الذين أولعوا بنظرياته، فراحوا يصورون الكون وهو يعمل بطريقة آلية أكثر مما صوره نيوتن نفسه، أو يحب أن يصوره[13] بهذا يكون نيوتن بنظريته تسبب في نشر الإلحاد فعلا، رغم عدم قصده لذلك، لأن الإلحاد نجم أكثر عن الصورة الآلية الميكانيكية

المادية التي صبغت الكون، بعد أن فقد غرضيته وأخلاقيته، وأصبح ينظر له كساعة دقيقة، تسير نفسها بنفسها، ولا تحتاج حتى إلى ساعاتي يتدخل لإصلاحها أو مراقبتها.

من هنا نلحظ الآثار الوخيمة على الدين المسيحي جراء هذه المكتشفات العلمية، لكن من المؤكد أن هذا ما كان ليحدث، لو لم تقحم العقائد المسيحية نفسها في مسائل علمية دقيقة، مقدمة نظريات خاطئة على أنها حقائق موحى بها، هذا الذي أدى إلى الشك في صحة الوحي والتصادم بين الدين المسيحي والعلم الحديث، وإلى إلغاء الصورة الوسيطية للعالم وللإنسان بشكل كل يكاد يكون مطلقا.

الآثار السلبية للثورة العلمية الحديثة

أ- انتشار الشك والإلحاد

الصورة الميكانيكية للعالم أدت فعلا إلى إنهيار الصورة الوسيطية للعالم من غائية وأخلاقية، بل ولمكانة الإنسان ومركزه في الكون. هذا التحول والانهيار القيمي يثير أسئلة وبإلحاح شديد منها:

"كيف يمكن أن يكون لأي من هذه الحقائق الفيزيقية أي أثر على وجود الله؟ كيف يمكن أن تزودنا بأي برهان ضد وجوده؟ ألا يمكن أن يكون الله موجودا في حالة دوران الأرض حول الشمس، مثلما يكون موجودا في حالة دوران الشمس حول الأرض؟ وهل يتسق وجود الله مع الدوائر لكنه يتعارض مع المسار البيضي الشكل (الإهليليجي)؟ أم أن الله لا يمكن أن يوجد في عالم يتبع قوانين جاليلي للحركة، بل يتبع قوانين أرسطو؟ فما الذي كان إذن في الثورة العلمية، يكمن أن يكون معاديا للدين؟" [14]

حقيقة لا يمكن أن نشك في أن المكتشفات الجديدة تتعارض فعلا مع الإيمان المسيحي، هذا هو واقع الحال، لكن كان يمكن تجاوز التعارض بنوع من الحلول كالتي جرت فيما بعد، من تأويل للنص وتكيف مع حقائق العلم، بدلا من إنكارها.

ولن ندخل في تفاصيل الجدل الذي أثير حول العلم الجديد لنيوتن، إلا أن الثابت أن علمه ساهم في انتشار موجة الشك والإلحاد وفي انتشار النزعة المادية وغياب الغائية الكونية، التي بدأت تتزحزح إلى الوراء، لتفقد مكانتها ضمن منظومة القيم الأوربية، لتحل محلها النظرة الآلية المادية. هذه النظرة التي سعت في البداية إلى تأسيس دين طبيعي، ثم الدعوة إلى حياة دون دين أصلا، وهكذا توالت الهزات التي عرفتها المجتمعات الغربية المسيحية ومؤسسة الكنيسة، خاصة بعد الثورة الفرنسية التي أباحت الإلحاد وشجعته ، إلا أن ما جاء به داروين كان الأخطر.

ب- زعزعة مكانة الإنسان

في القرن التاسع عشر، بدأت تطفو على سطح الجدل العلمي والديني أفكار أكثر حدة من تلك التي صورت الله كساعاتي عظيم، لكن انتهى دوره مع بداية الخلق، بما أن الكون لا يحتاج إلى تدخله، أفكار هذه الحقبة يمكن وصفها بالمرعبة حقا، حيث يأتي الإعلان النتشوي عن موت الإله، كصرخة مدوية في وجه الضمير الغربي بعد انهيار المسيحية. وهذه النتيجة منطقية في الحقيقة لأنها تتوافق وتطور الأحداث وتنسجم تماما مع مفاهيم العلم الحديث، فإذا

كان العالم دون غرض ويسير آليا، فإنه يترتب على ذلك أن الإنسان لم يعد بحاجة إلى الإله، وإنما التركيز سيكون على الإنسان وفقط، فهل تحقق هذا؟

عقيدة القرن التاسع عشر، وهي امتداد لعقيدة تنوير القرن الثامن عشر، تؤسس نفسها على مفهوم التقدم الإنسان يسير ويتقدم نحو الأمام دون التفات إلى الخلف، يجد سعادته في قوة العلم المتزايدة، والتطور المتصاعد للتكنولوجيا، وليس في الدين أو الفلسفة، وإنما في العلم الذي صار الأمل في انقاذ العالم وتحقيق مستقبل أفضل، ثم إن البيولوجيا تقول إن الإنسان كائن متطور، لكن بمفهوم جديد عن التطور، فهو لا يتطور حضاريا أو أخلاقيا فقط، وإنما بيولوجيا أيضا. فعقيدة التطور تعضد عقيدة التقدم، التي لم تعد تقتصر على الحياة وأساليبها، وغاياتها، بل على الإنسان في حد ذاته، إنه بالمنظور التطوري، كائن متطور عبر التاريخ، نسخة متحولة من الطبيعة، هذا التفسير الجديد ينسف قصة الخلق نسفا.

"وعاد سؤال الطبيعة عند داروين، وأصبح مركزيا مرة أخرى، لا عند العلماء فحسب بل عند أرباب الثقافة العامة (وإلى حد ما عند جمهور اللامثقفين) وأدت صورة الطبيعة عند داروين، وبخاصة سمتها الآلية الخالية من العقل، بالضرورة إلى رد فعل، أعاد النقاش، وبشدة حدته بين العلم واللاهوت."[15]. وبديهي أن يحتد النقاش، الذي لم ينقطع أو يغب تماما، لأنه إذا اتهم كوبرنيك بالحط من قيمة الإنسان، فماذا يمكن القول عن نظرية ترد أصولنا كإنسان إلى كائنات حيوانية سفلى؟

ج- جدل الثورة البيولوجية في القرن التاسع عشر

لاشك أن العلوم على اختلافها واستقلالها عن بعضها البعض كتخصصات، إلا أنها متداخلة ومتشابكة فما حدث في الفلك وعلوم المادة الجامدة، انقلب أثره على الأحياء، حتى أن راسل اعتبر أن نظرية التطور ولدت من علم الفلك، الذي كان تأثيره أشد على البيولوجيا والجيولوجيا[16] .هذا صحيح، فمع بداية العلم الحديث في القرن السابع عشر، كان البيولوجيون يعملون بالموازاة في هذا العالم المتنامي والمتحرك والمتناقض، حيث قامت مجموعة من علماء الطبيعة للتجميع والتصنيف والوصف، بقلب الأفكار القديمة مفجرة ما تراه خرافة قديمة ولاحظت بأعين حادة، أو بمساعدة المجهر تنويعات أو أجناسا من أنواع لم ترها من قبل (بعضها من العالم الجديد) وبعضها انقرض، لكن الحفريات كشفتها...نتج عن هذه المكتشفات البيولوجية الجديدة، إبعاد كل مصادر المعرفة السابقة والاعتماد على التجربة والعقل فقط الموثوق فيهما. من هنا اتبع علماء البيولوجيا النموذج الآلي للطبيعة، واتبعوا النظريات الميكانيكية في تفسير الظواهر الحية، لكن كل هذا يتم اعتمادا على مخطط إلهي في نهاية المطاف، ولم يكن ظهر في كتابات البيولوجيين أي تلميح لفكرة التطور.[17]

وبالرغم من زعزعة مكانة الإنسان جراء زعزعة كوكبه الأرض، ظل العلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر يكبر الإنسان، خاصة قواه العقلية، التي مكنته من اختراع الآلات التي تسهل حياته وتسعده. هذه النظرة سرعان ما أطاح بها البيولوجيون التطوريون، وكل من تأثر بهم من أولئك المفكرين والفلاسفة الذين نظروا للإنسان نظرة قاتمة، باعتباره نسخة متحولة من أبسط وأقذر الكائنات، ولم يكن في يوم ما هدفا للكون، بما أن الكون نفسه فقد هذا الهدف.

وهنا سؤال يطرح نفسه: "كيف تأثر وضع الكائنات الحية، برؤية الفيزيائيين الجديدة الميكانيكية، ورؤيتهم للعالم كآلة ساعة؟ وإذا كانت الفيزياء الحديثة قد بدأت على يد نيوتن، فإن البيولوجيا الحديثة، قد بدأت على يد ديكارت الفيلسوف والرياضي والمنظر البيولوجي."[18]

تواصلت الأبحاث التي تهدف إلى الكشف عن أسرار الجسم بتظافرجهود تخصصات عديدة تريد معرفة سر الحياة بطريقة علمية، وبلغة أدق فيزيوكيميائية، بعيدا عن أي طروحات غيبية.

ففي سنة 1845 تجند بعض العلماء البيولوجيين لأن "يفسرا كل العمليات الجسدية بلغة فيزيوكيماوية، وتبعهم الكثيرون من الماديين الميكانيكيين المتطرفين الذين زعموا أن البشر هم وما يأكلون، وأن العبقرية مسألة فسفور، وأن المخ يفرز الفكر كما تفرز الكلية البول."[19]

وتتصاعد النزعة المادية الحتمية في تفسيرها لظواهر الحياة الإنسانية، مستندة إلى الداروينية التي تعد أقوى محاولة في رد علم الإحياء إل الفيزياء والكيمياء.

وطبعا لا اعتراض على هذا التفسير، لكن الإشكال هو: هل هذا التفسير المادي هو التفسير الشافي والكافي لكل ظواهر الإنسان الداخلية والخارجية؟ لو اقتصر التفسير المادي على الجانب المادي من الحياة فإنه سيكشف عن جزء من الظاهرة وفي هذا فائدة جمة، لكن الإدعاء بأن مثل هذا التفسير المادي سيشمل كل الظاهرة الحية، هو الذي يوقع هؤلاء العلماء "في الإعتقاد الدوجماطيقي، بأن ما تخبرنا به الفيزياء والكيمياء، هو كل شئ، وأن ما سواه يخرج عن العلم."[20]

وليت هذا التفسير المادي أجاب عن كل أسئلة الحياة والخلق، ومع ذلك دوغمائية علماء البيولوجيا تواصل خنق الحياة، داخل حدود الذرة والتفاعلات الكيميائية، إلى درجة تجريد الإنسان من كل ملكاته التي يتميز ويتفوق بها على باقي الكائنات الحية، مما جعله يفقد دوره وهدفه في الكون، بعد أن أعتقد أنه مجرد نسخة متحولة وهكذا تضيع غائية الإنسان.

غائية الإنسان بين الصدفة والآلية

لقد أثارت مادية الداروينية حفيظة الغائية بكل أنصارها، وهنا أعيد طرح السؤال:
هل وجود الإنسان وحياته مجرد حدث عارض أم ضرورة هادفة؟ وكانت كل إجابة تصدر عن مرجعيتها، فبديهي أن الداروينية مع الوجود العارض والصدفوي، على أساس الأصل الوضيع للإنسان، وأنه مجرد حلقة في سلسلة تطور، يخضع لحتمية صارمة ـ ككل الكائنات ـ سواء في نشأته أو تطوره البيولوجي والحضاري، "ومن ثم فإن معنى التطور لا ينطوي في ذاته، على أي هدف مباشر، لقد اعتبر الداروينيون هذا التوجه الآلي، بمثابة خطوة حاسمة، على طريق تحرير البيولوجيا من أسر التفسيرات الميتافيزيقية الغامضة وانطلاقها إلى رحاب العلم الخالص."[21]

إذن العلم الحديث، ومنذ اكتشاف كوبرنيك ونيوتن، بدأ وبصورة تدريجية في إزاحة مفاهيم عديدة منها الغائية الكونية الإنسانية، التي بدأت تتزحزح إلى الوراء، لتفقد مكانتها بشكل يكاد يكون مطلقا عل يد داروين.

هذا ما يقره فلاسفة ومفكرو الغرب أنفسهم، من ذلك ما ذكره جارودي: "... وفقد عالم الإنسان مركزه بعد هذا في علم الحياة على يد داروين، وذلك لأن داروين استبدل بهذه الحقبة التاريخية القصيرة، التي تحدث عنها الكتاب المقدس على مدى ستة آلاف عام من الحوار بين الإنسان والله، تلك الحقبة الطويلة، التي روت تلك الملحمة البربرية، التي لم يكن المليونان من سنوات التاريخ، وما قبل التاريخ فيها، إلا مرحلة خاطفة في المسيرة الشاملة للحياة في كوكبنا، ولتاريخ كوكبنا الأرضي في الكون."[22]

وبهذا تخرج الداروينية عن نطاق العلم، لتتحول إلى اتجاه فلسفي وإيديولوجي، كما هو واضح من الاستغلالات الواسعة للنظرية في كل حقول المعرفة، ففي السياسة نجد أن مقولة "البقاء للأقوى" باتت هي التي تحكم المجتمع الدولي، وفي علم الاجتماع يعالج سبنسر كل قضاياه وفق رؤية تطورية وفي الأخلاق والاقتصاد.. بل وحتى في علم النفس كما تنبأ داروين فإن نظريته قلبت موازين القوى النفسية والأخلاقية، وبذلك "فقد عالم الإنسان هذا مركزه على يد التحليل النفسي عند فرويد، الذي قدم للإنسان صورة قوامها مجموعة من القوى المتباينة، ومن الخيوط المتشابكة، التي أقبلت عليه من كل صوب، ومن بعيد جدا، وتكونت النفس البشرية من العقد المخيفة لتلك الخيوط، وهي عقد قابلة دائما لأن تفلت من أيدينا وينفرط عقدها."[23] نلاحظ كيف تغيرت النظرة للإنسان وكيف أصبح دون قيمة بعد أن وضع في خندق الحتمية والآلية والتطور الداروينى مما جعل مشاعر الإحباط واللامعنى تتفاقم لديه لتسلبه كل معاني الأمل والاستقرار ليجد نفسه يتحدث عن الصراع من أجل البقاء وكيف يفوز في معركة الصراع هذه، والتي حتى وإن كسبها فإنه لن يعثر على السعادة المنشودة. "إن الصراع من أجل الوجود، بل وكل ترسانة الفكر الداروينى وأتباعه، أبعد من الإيحاء بمستقبل يسوده السلام والتعاون، وينتفي فيه الإحباط وتنتهي المعاناة...صفوة القول أن مضمون الداروينية بالنسبة للأخلاق والسياسة، قد يبدو مناقضا أكثر منه مؤيدا للتقليد الموروث عن التنوير المفعم بالأمل، الذي كان يؤيد إمكانية التحول السريع إلى حياة أفضل،[24] كما بشر به أنصار التنوير. إن الإنسان الغربي خان التطور بنفسه، عندما قدم قيما هوت بالإنسان بدلا من أن تقدمه: الحرب، الكراهية، الظلم، السادية... ويكفينا أن نشير فقط لما يسمى (بالحرب البيولوجية) التي تدمر الإنسان دون أن نسمع دوي السلاح، فالأغذية السامة والمحورة وراثيا، تضمن الانتصار في معركة الوجود والبقاء للأصلح دون مواجهة الخصم أو العدو، ودون إحداث أدنى الخسائر.

خلاصـــة

واقع الحال أن العلم الحديث خدم الإنسان فعلا وفتح أمامه الآفاق، لكن في الوقت نفسه جرده من إنسانيته بعد أن تنازل وتخلى عن كل القيم وعلى رأسها الإيمان بالله، وكم أجد تعليق جارودي على نتشه لماحا وصائبا لأنه ذهب إلى عمق المشكلة، مشكلة الإنسان الغربي الذي تخلى عن إيمانه حيث يقول: "منذ ثلاثة قرون، أعلن نتشه موت الإله، وكان هذا يعني كشف عزلة الإنسان، وذلك لأن القول بأن الله قد مات، معناه أن الإنسان يعيش وحده في هذا العالم. لكن نتشه كان يرمي من وراء ذاك، إلى أبعد من هذا المعنى، لأنه أنكر وجود "الآخر" أيا كانت الصورة التي يتشكل فيها هذا الآخر."[25]

وربما كان يستحيل الوقوف على أبعاد ما قاله نتشه في حينه، لأن الغرب، في ذلك الوقت هلل لموت الإله معتقدا أنه قضى على آخر أصنام الخرافة والأساطير، لكن فيما بعد كشف الواقع المر خطورة ما صرح به نتشه، وخطورة تأييد مثل هذه الآراء التي يصعب تصنيفها ووصفها. "فليس يكفي إذن أن يتم الانقلاب الذي أراده (نتشه) ـ المتأثر بداروين ـ في دنيا القيم، أن يهدر دم الله، بل لابد أيضا في الوقت نفسه، أن تتكر كل القيم، التي توصف بأنها عليا، وتتكر مجموعة التكاليف التي وضعها الإنسان نفسه، ليس فقط ابتداء من المسيح، بل ابتداء من سقراط ليأتمر بها." [26]

ويقف على رأس منظومة القيم الإيمان بالله، والذي إنكاره أو القول بموته يعني في الحقيقة موت الإنسان. هذا ما أثبته واقع الغرب في حد ذاته، حيث عبر عن حاجته لإنسانيته، لقيمه، وقبل ذلك لإيمانه بالله، حاجات الإنسان عجز العلم عن تلبيتها والتي توهم أنه يمكنه ذلك، ثم يأتي القرن العشرين بحربين عالميتن، ويلف الدمار العالم الحديث الذي أسس على عقائد التنوير والتقدم والتطور، ليجد الإنسان نفسه لا يتطور، بل هو صوب التخلف يتجه، نحو قتل نفسه، وقتل إنسانيته. هذا جعل التيارات الفلسفية تأخذ المبادرة وتجتهد لتقديم المساعدة والحل، فتبرز الوجودية كتيار يريد أن يعيد للإنسان إحساسه بوجوده وحريته وكرامته، وليت التهليل كان للوجودية المؤمنة، بل ذاع صوت وفكر سارتر أكثر، لتستمر تجربة الإلحاد في محاولة لإنقاذ الإنسان، لكن هذا الأخير وجد نفسه يتيه بين الوجود والعدم والغثيان واللامعقول... وكل هذه المفاهيم الوجودية ولكن المفرغة من الوجود؟ وتحاول البنياوية لم شتات الإنسان الغربي بإعادة بنائه، لترد التفكيكية بما تراه الأنسب، وهكذا يتيه الإنسان بين دروب هذه الفلسفات التي حاولت جاهدة إعادة الاعتبار لإنسان ما بعد الحداثة، محاولة الاستفادة من تجارب الحداثة السابقة.

لكن إلى جانب هذا النشاط الفكري الفلسفي، نجد تطورا في الموقف الإبستمولوجي للعلم، والذي مارس نقدا ذاتيا بعد أن أدرك أنه لا يمتلك بمفرده مفاتيح السعادة التي وعد بها، كذلك نجد تطورا في الموقف الديني المسيحي في محاولة منه لاستعادة دوره في الحياة الاجتماعية وتقديم بدائل أنفع للإنسان من خلال إحياء روحي، بعيدا عن الأطروحات اللاهوتية القديمة.

إن ما حل بالإنسان من مآسي جعله يقف متأملا، يعيد النظر في تقييم انجازاته، في محاولة لإيجاد حل والخروج من الأزمة. صيحة تحذير أطلقها الكثير من مفكري وفلاسفة وعلماء الغرب ضد الغلو في رفض القيم الأخلاقية ورفض تفرد الإنسان وغائيته، ضد المنزع الآلي في الدراسات الإنسانية في محاولة لرد الاعتبار للوجود الإنساني ولغرضية العالم.

المراجع والهوامش

(1) ولتر ستيس: الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبد الفتاح مكتبة مدبولي، طبعة أولى، 1998، ص47.

(2) Bertrand Russel, *Science et Religion*, traduit de l'anglais par philippe-Roger ed. Galimard 1971 p 16-17.

(3) المزمور 93 /1

(4) آرثر لقوجوي: سلسلة الوجود الكبرى، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة ماجد فخري، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ص175- 176.

(5) قيس هادي أحمد :نظرية العلم عند فرنسيس بيكون، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، طبعة ثانية، 1986 ص37.

(7) Sir Issac Newton :*Prinncipia*.v2 the univer of california , press 1962.P546.2001

(8) ibid.p 547

(9) ولتر ستيس: الدين والعقل الحديث، مرجع سابق، ص 93.

(10)Russel : *science et religion*. traduit par Philippe Roger .edit Gallimard.1971 ,p41 .

(11) ibid p 44

(12) ibid .p 44

(13) ليود سبنسروأندرزيجي كرور: عصر التنوير، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 1، 2005، ص55.

(14) ولتر ستيس: الدين والعقل الحديث، ص103.

(15) فرانكلين باور: الفكر الأوروبي الحديث، ترجمة أحمد حمي محمود، القرن التاسع عشر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص13 .

(16) Russel : *science et religion*. p34 .16

(17) فرانكلين باور: المرجع السابق، القرن السابع عشر، ص 72.

(18) ستيفن روز وآخرون : علم الأحياء والأيديولوجيا، ص 67.

(19) المرجع نفسه، ص 71.

(20) صلاح محمود عثمان: الداروينية والإنسان، نظرية التطور من العلم إلى العولمة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 2001، ص94.

(21) المرجع نفسه، ص 109- 108.

(22) جارودي: نظرات حول الإنسان، ترجمة يحيى هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1983، ص294.

(23) المرجع نفسه، ص294.

(24) عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص104.

(25) جارودي: نظرات حول الإنسان، ص291.

(26) المرجع نفسه، ص 291.